

المنهج الوصفي الوظيفي والتحليل الصوتي لخطاب القرآن سورة الرعد نموذجاً

د/عمار ساسي

كلية اللغات والآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة البليدة

عند أولي الرأي والنظر وتقرر ألا تحليل إلا بمنهج لذا كان المنهج الوصفي الوظيفي المتبنى هو منهج التحليل الصوتي لخطاب الرعد في هذه الدراسة هو وصفي لأنه يصف البنية اللغوية للخطاب أولاً، وهو وظيفي لأنه يبين وظيفته الأساسية في الكلام وهي الإبلاغ.

وفي هذا السياق ستكون هذه الدراسة موزعة على عنصرين أساسيين: الأول وهو نظري ويشمل وصفة مركزة عن المنهج الوصفي الوظيفي في أهم مبادئه. والثاني تطبيقي ويتناول التحليل الصوتي لخطاب الرعد على ضوء المنهج الوصفي الوظيفي.

أحسب أن تحليل الخطاب أياً كان نوعه لا يكون مجدياً ما لم يقف الوقفة العلمية المركزة على الجانب الصوتي فيه، حرصاً منه على تجلية موقع الصوت في دلالة الخطاب، وكاشفاً عن هندسته في المساحة. إن المستوى الصوتي في الخطاب يمثل المستوى القاعدي الأساس الذي تنعكس عليه باقي المستويات الأخرى، من إفرادي وتركيبية ثابت وتركيبية متغير. وإذا كان تحليل الخطاب يعد من القضايا الكبرى في الساعة والساحة، والتي شددت انشغال واهتمام الباحثين في العلوم الإنسانية عامة والعلوم اللغوية والأدبية خاصة، فإنه تعين

رؤية علمية في المنهج:

إنه لا بد من الإقرار أن مناهج البحث في اللغة متعددة ومتجددة، لأنها قائمة على رؤى واجتهادات فردية تحرص دوماً على استيعاب الظاهرة اللغوية والإحاطة بخصائصها والبحث عن أسرارها، فقد مضى حين من الدهر كان المنهج التاريخي قائماً وسائداً، ثم انتهى وقام مقامه المنهج المقارن، ثم انتهى بحجة أن اللغة ليست زماناً فحسب، وأن البحث عن الأصالة والفرعية في اللغات الإنسانية غير قادر عن كشف أسرار الظاهرة اللغوية، لذا كان الواجب تغيير الوجهة في البحث اللغوي، فكان المنهج الوصفي بديلاً جديداً يدرس اللغة على خطين عمودي تطوري وأفقي آني، وكتب له أن يعيش مرحلة من الزمن، ثم بدأت بعض النقائص تظهر فيه وأحاطت به جملة من الصعوبات لم يجد لها حلاً.

أذكر من النقائص اهتمامه باللغة دون المتكلم وظروف الكلام، ومن الصعوبات في التحليل الدليل المزجي، وإثر هذا الحال ظهر بديل المنهج الوظيفي على أساس أن الوظيفة الأساسية في اللغة هي الاتصال، وأبدع التقطيع المزدوج ولم ينج هو الآخر من الانتقاد، وظل قائماً إلى أن جاءت التحويلية التوليدية لشومسكي برؤية جديدة في دراسة اللغة تمثلت في ثنائية الملكة والتأدية وثنائية البنية السطحية والبنية العميقة، ورغم تدارك النظرية التوليدية لكثير من نقائص المناهج السابقة إلا أنها هي الأخرى لم تنج من بعض النقد، وصادفتها جملة من الصعوبات في الطريق.. مما أذن لرؤى لغوية أخرى بالظهور في الساحة كبدايل، وهنا أذكر السيميائية والتداولية.

وما نصل إليه بعدها أن ليست المناهج والنظريات إلا وجهات نظر اجتهدية فيها الصواب ومحتمل

فالبنوية الوظيفية في قراءتي هي منهج في الدراسة اللغوية وصفني ووظيفي، هو منهج وصفني لأنه يصف البنية اللغوية، وهو منهج وظيفي في الوقت نفسه، لأنه يبين الوظيفة التي تؤديها البنية اللغوية. إن المنهج الوصفي الوظيفي في الدراسة اللغوية الذي أتبناه في هذا البحث وأدعو إليه ينطلق من أسس المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية المحدد في ضوء اللسانيات الحديثة.

المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية:

لقد وضع أبو علي الفارسي منهجاً لاتجاه جديد في علوم العربية سمي بمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية، انطلق هذا المنهج من الدراسة اللغوية الموضوعية لكل مسألة من مسائل الخلاف النحوي على حدة وإبداء الرأي فيها، لذا وسم بأنه منهج علمي. وقد تبنى العلامة اللغوي أبو الفتح بن جني

فيها الخطأ، وأن التجدد في حركة التنظير ظاهرة طبيعية وصحية تخدم الدرس اللغوي، وأن كل نظرية من هذه خدمت البحث اللغوي في جانب من جوانبه وأثارت أفكاراً إيجابية في البحث، إلا أنها غير كافية لاستيعاب الظاهرة اللغوية.

واللغة كعبة ذات زوايا والنظرية نظرة من زاوية، والتكامل سمة ثابتة في النظريات اللغوية، إذ أن كل لاحقة منها تكمل نقص السابقة. وأنه ليس من العلمية إلغاء جهد التنظير، ولا من العلمية احتكاره وإن ادعاء الصواب والصحة فيه على القطع خطأ يجب تصحيحه، وإن الاجتهاد حياة للبحث والقيود قتل له، وإن للسان العربي خصائص مميزة وفريدة في أصواته ومفرداته وتراكيبه، وإن نظريته نابعة من ذاته المميزة والفريدة، وإن مبادئها مكنونة في عمق تراثها العلمي الزاخر.

وعلى هذا النحو يكون برأينا اللسان العربي بنية ووظيفة وعليه

المنهج العلمي لأستاذه وعمقه
يبحثه عن الأصول العامة للنحو في
كتابه الخصائص وبحث في نشأة
اللغات وأصوات العربية وعلاقة
معاني الكلم العربية بأصواتها.

بعض جوانب نظرية ابن جني
التي بلورها في الخصائص:

أ. انطلق ابن جني من منطلق
وصف البنية اللغوية، لأن بحثه في
الخصائص كان يدور بشكل رئيس في
نطاق بنية الكلمة المفردة، فعمد إلى
دراسة الأصوات التي تتألف الكلمات
منها وتسعى إلى اكتشاف القوانين
التي تنظم العلاقة بين الأصوات في
الكلمة، فبحث في الاشتقاق وأنواعه،
ودرس التقليلات الممكنة للكلمة
الواحدة، وبين أن الأمر المشترك الذي
يجمع التقليلات هو وحده المعنى.
وأفضى ذلك به إلى القول بوجود
علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت
والمدلول. ويعني هذا أن ابن جني
لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة
الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن.

ب. اهتم ابن جني باكتشاف
القوانين العامة للنظام اللغوي، ولم
يتبن لدى البحث في نشأة اللغة
نظرية التوقيف أو الاصطلاح، بل
جوزهما على حد سواء، لأن ذلك
لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية،
ولكن ابن جني أكد بشكل حازم
على أمرين:

1. لم تنشأ اللغة في وقت واحد،
بل نشأت في أوقات متلاحقة.

2. كانت اللغة باستمرار تحافظ
على اتساق نظامها.

ج. بحث ابن جني في القوانين
الصوتية العامة التي ترجع إلى
الخصائص الفيزيولوجية للإنسان
وعبر عنها بحس المتكلم، كما
وازن بين لغة العرب ولغة العجم.

ثم سار عبد القاهر الجرجاني
وفق المنهج العلمي لأبي علي
الفارسي وعمقه بتأكيد الوظيفة
الإبلاغية التي تؤديها اللغة، وذلك
بالدعوة إلى عدم فصل دراسة

ب - انصب اهتمام الجرجاني على اكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي، وأكد ارتباط اللغة بالتفكير، ولدى البحث في نشأة اللغات بين دور التفكير في نشأة اللغة، وجوز الجرجاني كما فعل ابن جني القول بأن اللغة تواضع أم إلهام، ولكنه أكد أن مهمة الكلمات المفردة لم تقتصر منذ بداية وضعها على التسمية فقط، بل كانت مهمتها مرتبطة أيضا بالإبلاغ.

ج - بحث الجرجاني في القوانين اللسانية العامة وقرر ما يلي:

- 1 - لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى، سواء أكان ذلك في لغة واحدة أو في لغات مختلفة.
- 2 - الخبر معنى بين شيئين، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل.

وعلى هذا نرى أن نظرتي ابن جني والجرجاني متتامتان، بل

البلاغة عن النحو. فكان كتابه «دلائل الإعجاز» بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم العربية وهي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة.

وهذه بعض جوانب نظرية الإمام الجرجاني التي بلورها في دلائل الإعجاز.

أ - انطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصف البنية اللغوية وبيان وظيفتها الإبلاغية، لأنه بحث في نظم الكلم فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة الإبلاغية التي تؤديها في الكلام انطلاقاً من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض، وكان يرى أن اللغة نظام لربط الكلمات، ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام لم يكن الجرجاني بحاجة إلى وصفه وصفاً تطورياً، بل عمداً إلى وصفه وصفاً تزامنياً، وأدى ذلك به إلى القول باعتبارية الإشارة اللغوية.

يصح القول إنهما تؤلفان جانبين
لنظرية لسانية واحدة تعبر عن اتجاه
مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية،
ويظهر التتام بين النظرتين جليا في
الأمرين التاليين:

. ضرورة الربط بين الدراسة
التزامية للنظام اللغوي، التي تقدمها
نظرية الجرجاني والتطورية التي
تقدمها نظرية ابن جني.

. ضرورة الربط بين القول
بأن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة
الذي اعتمدته نظرية ابن جني،
بارتباط نشأة اللغة بالتفكير
الذي اعتمدته نظرية الجرجاني،
ويعني ذلك أن اللغة قد نشأت
وتطور نظامها واكتمل بشكل
مواز لنشأة التفكير الإنساني
وتطور نظامه واكتماله.

ويمكن تحديد الملامح العامة
لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي
لللغوية في المبادئ التالية:

أ. الانطلاق من أن اللغة نظام.

ب. اللغة ظاهرة اجتماعية،
وترتبط البنية اللغوية فيها بوظيفة
الاتصال التي تؤديها اللغة.

ج. تلازم اللغة والتفكير.

وبما أن النظام اللغوي في حركة
مستمرة، فيجب أن يستخدم في
دراسته منهج تاريخي علمي، ويقوم
المنهج التاريخي العلمي المستنبط
من التتام بين نظرتي ابن جني وعبد
القاهر الجرجاني على المبادئ التالية:
1. التتام بين النطق والتفكير
ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة
الكلام الإنساني، وإدراك العلاقة
الذهنية بين الصوت وما يشير
إليه كان البداية الأولى في تكوين
التفكير الإنساني، وقد نطق الإنسان
الأصوات بشكل واع ليستخدمها
وسيلة لنقل أغراضه للآخرين.

2. لم ينشأ التفكير الإنساني
مكتملا طفرة واحدة، وانطلق
خط السير العام لتطوره من إدراك

تلك اللغة تعبر عن التفكير القائم على إدراك الشخص، ولم تكن فيها التسميات الحسية قد استكملت بعد تركيزها في تجريدات.

4 . يؤلف النظام اللغوي كلا واحدا، توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه في علاقة تأثير متبادل فيما بينها، ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساس والموجه بالنسبة لبقية المستويات، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية العليا، ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات العليا، في حين أن العكس ممكن.

5 . يجب علينا لدى دراسة النظام اللغوي أن نهتم بما هو عام ومطرد، دون أن نهمل الاستثناءات، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد، وبذا نتمكن من دراسة النظام اللغوي

المشخص المحسوس، واكتمل بالانتقال إلى المجرد، كما أن النظام اللغوي لم ينشأ مكتملا طفرة واحدة، بل نشأ واكتمل تدريجيا بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني واكتماله، ويتجلى اكتمال النظام اللغوي في اكتمال أصوات اللغة وتعبير مفرداتها عن المجردات واكتمال نظامها القواعد في الصرف والنحوي أي صيغ تغير كلماتها المفردة وأنماط علاقاتها التركيبية. أما مرحلة ما قبل اكتمال النظام اللغوي فتتجلى في عدم اكتمال أصوات اللغة، وفي تعبير مفرداتها عن المحسوسات فقط، وفي عدم اكتمال صيغ تصرف الكلمات المفردة فيها، وأنماط علاقاتها التركيبية.

3 . إنكار الترادف الذي قد يظنه بعضهم سببا لتمييز لغة ما بثناء مفرداتها وسعة التعبير فيها والنظر إلى ما يعد من الترادف في لغة ما على أنه يعكس مرحلة تاريخية قديمة كانت فيها ألفاظ

أبي علي الفارسي اللغوية، وقد مكنه هذا المنهج من إدخال تطوير هام في التأليف للسان العربي تجلّى في علم الصرف قبل علم النحو. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي:

لماذا اشتهر القسم الثالث من مفتاح العلوم الخاص بعلمي المعاني والبيان، وأهمّل القسم الأول الخاص بعلم الصرف، والقسم الثاني الخاص بعلم النحو؟

السبب واضح برأينا، تم ذلك لأن المنهج السائد في التأليف اللساني ما قبل السكاكي كان يقضي بدراسة علم النحو أولاً، ثم تليها دراسة علم الصرف. وقد أدخل السكاكي تطويراً هاماً حين جعل دراسة علم الصرف سابقة لعلم النحو، لكن شراح بلاغة المفتاح فصلوا البديع عن البيان فقسموا علوم البلاغة إلى المعاني والبيان والبديع، وتخلوا عن تعريف السكاكي لعلم المعاني وهو: «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره،

في وضعه الراهن «المتزامن» وفي تطوره في آن واحد، وخير دليل علمي، وأفضل الشواهد التاريخية هو المادة اللغوية نفسها للغة حقيقية معروفة، وعليه فمن أجل دراسة تاريخ اللغات يجب الاستناد إلى مادة لغوية تثبت الشواهد التاريخية أنها كانت موجودة فعلاً وليست مفترضة الوجود فقط.

وبعد الإمام عبد القاهر الجرجاني جاء الإمام الزمخشري وتابع السير وفق المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية، ثم جاء الإمام السكاكي فبنى المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية وطوره بكشف خصائص النظام اللغوي للعربية في مستوياته المتدرجة الأصوات أولاً، والكلمات المفردة ثانياً، والتراكيب من حيث علاقتها النحوية ثالثاً، والتراكيب من حيث علاقتها السياقية والمقامية رابعاً. إن منهج السكاكي في المفتاح هو المنهج العلمي المتطور لمدرسة

مع تأكيد الوظيفة البلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو على غرار ما فعله الجرجاني والزمخشري والسكاكي، ومن أجل فهم أسرار إعجازه العلمي في الدراسة اللغوية لابد من التعمق في فهم المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية مع تأكيد إنكار ظاهرة الترادف والبحث عن الفروق الدقيقة بين ما يظن أنه من المترادفات، وسيجد الدارس لهذا البحث آثارا تطبيقية لهذا المنهج في فصوله المحددة، وأحسب أنها إن لم تكن قد أثمرت بعد فإنها لا محالة قد أثارت، وكفى فضلا بالآثار في انتظار بدو الثمار.

في آليات تحليل الخطاب:

نموذج الخطاب القرآني:

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝۸ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ ۝۹ الْمُتَعَالِ ۝۹﴾

ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»⁽¹⁾.

وعلم المعاني وفق هذا التعريف دراسة تطبيقية تتجلى في تتبع كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة عن طريق دراسة الجملة في السياقات المختلفة، وقدم القزويني في «الإيضاح» تعريفا بديلا لعلم المعاني، وهو: «علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»⁽²⁾.

فأسقط القزويني بذلك الجانب التطبيقي الذي أكدّه السكاكي والمتمثل في تتبع كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة. وقد ساد تعريف القزويني لعلم المعاني إلى يومنا، وتكرس بسبب ذلك فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض⁽³⁾.

والكلمة الأخيرة في المنهج اللغوي المتبنى هي:

إنه من أجل فهم أسرار القرآن وإعجازه البلاغي لابد من التعمق في فهم المنهج الوصفي الوظيفي

سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ
 بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالِئْلِ وَسَارِبٌ
 بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ. مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ
 وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ
 وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَّالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي
 يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
 وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ
 الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ. وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ
 وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ
 يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
 شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
 كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ
 بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾
 وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴿٤﴾

سينطلق العمل التحليلي لهذا
 النوع من الخطاب في القرآن من
 رؤية بينة لخصائص النظام اللغوي
 في مستوياته المتدرجة، وهي
 الأصوات أولاً، والكلمات المفردة

ثانياً، والتراكيب من حيث علاقاتها
 النحوية ثالثاً، والتراكيب من حيث
 علاقاتها السياقية والمقامية رابعاً،
 مع العلم أن المستوى الصوتي هو
 المستوى القاعدي الذي تنعكس
 عليه باقي المستويات الأخرى،
 وأن كل مستوى يحمل دلالة جزئية
 تكتمل بتلاحم المستويات الأربعة.
 وأن البراعة هي الكل المنسجم
 بإحكام. ولعل رأس القضايا المثارة
 في هذا الجزء قضية الصوت
 والمعنى القديمة الحديثة ومنها
 يمكن إثارة التساؤل التالي:

. هل للصوت معنى؟ وهنا يجب
 التفريق بين المعنى والوظيفة.

. هل للصوت دلالة خارج
 السلسلة الكلامية؟

. هل فواتح بعض السور أصوات
 أم حروف؟

. إذا كانت أصواتاً، هل هي على
 معنى ودلالة أم أنها زائدة؟

. هل يصح عقلاً القول بالزيادة
 في الخطاب القرآني؟.

إلا بعد تتبع آراء العلماء واللغويين العلمية في هذين الصوتين. وعليه نورد أقوالهم بالترتيب واتباعها التعليق.
صوت اللام:

قال ابن سينا «اللام عن صفق اليد على رطوبة أو وقوع شيء فيها دفعة، حتى يضطر الهواء إلى أن ينضغط معه، ثم ينصرف وتتبعه رطوبة»⁽⁵⁾.

وقال الخليل: «اللام والراء والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفين كذلق السنان»⁽⁶⁾.

وقال تلميذه سيويه: «ومن حافة اللسان من أدناه إلى منتهى طرف اللسان، وما بينها من الحنك الأعلى وما فوق الضاحك والنايب والرابعة والثنية مخرج اللام»⁽⁷⁾.

وقال ابن جنى: «اللام حرف مجهور يكون أصلاً وبدلاً وزائداً»⁽⁸⁾. ويرى الدكتور رمضان عبد التواب: «أن اللام صوت جانبي مجهور ينطق به بأن يتصل طرف

. هل بحث علماء العربية في هذه الجزئية الكبيرة من البحث الصوتي اللغوي؟

. ما واجبنا اليوم إزاء هذه المهمة الكبيرة؟

أ. التحليل الصوتي للخطاب القرآني في سورة الرعد: بنظرة دقيقة إحصائية في النص نجد ما يلي:

. بلغ صوت اللام أربعة وثلاثين مرة موزعة توزيعاً عاماً على مساحة النص.

. وبلغ صوت الراء ثمانية عشرة مرة موزعة توزيعاً عاماً على مساحة النص.

. بلغ صوت القافية «آل» ست مرات.

. بلغ صوت القافية «آر» مرتين.

والسؤال لماذا غلب صوت اللام في النص، توزيعاً وقافية؟ ولماذا أعقبه في الترتيب صوت الراء؟ هل لهذين الصوتين دلالة في بلورة معاني الخطاب ودلالاته؟

لا يمكن الوقوف على الجواب

اللسان بالثثة ويرتفع الطبق فيسد
المجرى الأنفي عن طريق اتصاله
بالجدار الخلفي للحلق، هذا مع
حدوثذبذبة في الأوتار الصوتية،
ومعنى أنه صوت جانبي أن أحد
جانبي اللسان أو كليهما يسمح
للهواء الخارجى من الرئتين
بالمرور بينه وبين الأضراس في
الوقت الذي لا يمكنه فيه المرور
وسط الفم، لحيلولة طرف اللسان
المتصل بالثثة دون ذلك.. والأصل
في صوت اللام الترقيق، إلا أنه كما
يذكر علماء القرآن يفخم في لفظ
الله إذا لم يسبقه صوت من أصوات
الكسرة، كما أنهم يجيزون تفخيمه
إذا تلاه صوت من أصوات الفتحة
ويسبقه أحد الأصوات المطبقة مثل
الصلاة، الطلاق، الظلام.

والفرق بين اللام المرققة
والمفخمة يوجد كما هو معروف في
وضع مؤخرة اللسان بالنسبة لللاثين
إذا أنها ترتفع ناحية الطبق في حالة
اللام المفخمة وتنخفض إلى قاع

الفم في حالة اللام المرققة، فالفرق
بين نطق اللامين هو نفس الفرق
بين صوتي السين والصاد. وإذا كان
الخط العربي لم يرمز لكل لام من
اللامين برمز يختلف عن الآخر،
فما ذلك إلا لأنها عبارة عن عائلة
صوتية(فونام) واحدة لا يتعدد بتعدد
أفرادها معنى الكلمة»⁽⁹⁾.

قال الإمام السكاكي: «ومن حافة
اللسان من أدناها إلى منتهى طرف
اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك
الأعلى مما فوق الضاحك والناب
والرباعية والثنية مخرج اللام»⁽¹⁰⁾.

ومن هذا الذي عرض، نذكر في
صوت اللام ما يلي:
- يحمل دلالة الاستعلاء والعلو
هي نواة خطاب سورة الرعد التي
منها القوة والعظمة.

- في صفة الجهر علو وقوة.
- في حركة اتصال طرف اللسان
بالثثة وارتفاع الطبق، علو وقوة.

- في حركة من طرف اللسان من
أدناها إلى منتهى طرف اللسان وما

وقال ابن سينا: «الراء عن تدحرج
كرة على لوح من حيث شأنه أن
يهتز اهتزازا غير مضبوط»⁽¹³⁾.

وقال الإمام السكاكي: «ومن
مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر
اللسان قليلا، لانحرافه إلى اللام
مخرج الراء»⁽¹⁴⁾.

ويرى الدكتور رمضان عبد
التواب في صوت الراء ما يلي:
«هو صوت تكراري مجهور، يتم
نطقه بأن يترك اللسان مسترخيا
في طريق الهواء الخارج من
الرئتين، فيرفرف اللسان ويضرب
طرفه في اللثة ضربات متكررة،
وهذا معنى وصف الراء بأنه
صوت تكراري، هذا بالإضافة
إلى حدوث ذبذبة في الأوتار
الصوتية عند نطق هذا الصوت.
ويلاحظ أن الأطفال في بداية
نموهم اللغوي لا يقدرّون على
نطق الراء بسبب ضعف العضلات
المحركة لمقدمة اللسان عندهم،
وقصورها في هذه السن المبكرة

يليهما من الحنك الأعلى وما فوق
الضاحك والنااب والرباعية والثنية
علو وقوة.

وعليه فاختيار صوت اللام
في هذا الموضع بالذات فيه دقة
وانسجامية مع محتوى الخطاب.
صوت الراء:

قال الخليل: «الراء هو القراء
الصغير والرجل الضعيف. والراء
زبد البحر أيضا، قال الشاعر:

كَأَنَّ بِنَحْرِهَا وَبِمَشْفَرِئِهَا

وَمَخْلَجٍ أَفْهَهَا رَاءً وَمَضًا⁽¹¹⁾

قال ابن جني: «الراء حرف
مجهور مكرر يكون أصلا لا بدلا
ولا زائدا، فإذا كان أصلا وقع فاء
وعينا ولاما، فالفاء نحو رشد
ورشد، والعين نحو جرح وجرح
واللام نحو بدر وبدر.. واعلم أن
الراء لما فيها من التكرير لا يجوز
إدغامها فيما يليها من الحروف، لأن
إدغامها في غيرها يسلبها ما فيها
من الوفور بالتكرير»⁽¹²⁾.

عن إحداث الاهتزازات السريعة المكررة لهذه المقدمة»⁽¹⁵⁾.

ومن هذا الذي عرض أثبت أن في صوت الرء المنافس لصوت اللام في النص صفة القوة والعلو اللتين هما نواة من نواة خطاب سورة الرعد.

كما أن في صفة الجهر قوة وعلوا وتكريرا لهما.

وفي حركة ترك اللسان مسترخيا في طريق الهواء الخارج من الرئتين، ورفرفة اللسان وضرب طرفه في اللثة ضربات متكررة⁽¹⁶⁾، علو وقوة.

كما أن صوت الرء يطلب من العضلات الناطقة أن تكون في تمام القوة، والرعد هو حركة صوتية تنم عن حدث علوي متكرر فيه عظمة مخيفة تجعل الإنسان يخاف فيتدلل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله: ﴿وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ...﴾⁽¹⁷⁾، وفي الدعاء

النبوي حين سماع صوت الرعد إشارة أخرى مؤكدة: «سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ»، ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ»⁽¹⁸⁾.

ما العلاقة بين اللام والرء في الاختيار؟

يقول العلامة ابن جني جوابا: «هذا غور من العربية لا يتصف منه ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غفلا مسهوا عنه، وهو على أضرب:

منها اقتراب الأصلين الثلاثين كضياط وضيطار، ولوقة وألوقه، ورخو ورخود...

ومنها اقتراب الأصلين ثلاثيا أحدهما ورباعيا صاحبه أو رباعيا أحدهما وخماسيا صاحبه كدمث ودمثر، وسبط وسبطر... وقد تقع المبارحة في الأصل الواحد بالحرفين نحو قولهم السحيل والصهيل، قال:

كَأَنَّ سَحِيلَهُ فِي كُلِّ فَجْرٍ

عَلَى أَحْسَاءٍ يَمْوُودُ دُعَاءَ
وذلك من «سحل»، وهذا من
«صهل» والصاد أخت السين كما أن
الهاء أخت الحاء ونحو منه قولهم:
سحل في الصوت وزحر، والسين
أخت الزاي كما أن اللام أخت
الراء... وقالوا: الغدر كما قالوا
الختل، والمعنيان متقاربان واللفظان
متراسلان فذاك من غدر وهذا من
ختل، فالعين أخت الخاء والبدال
أخت التاء والراء أخت اللام...»⁽¹⁹⁾.

ومن هذه الوقفة الجزئية على
الصوتين اللام والراء يمكن استنتاج
ما يلي:

برأينا وبعملية استقرائية وتصنيفية
يمكن القول إن أصوات العربية هي
قائمة على مبدأ الأصالة والفرعية، إذ
أن صوت العين الخارج من أقصى
الحلق يمثل الأصل لأسبقيته وباقي
الأصوات هي عنه فروع. وهو
الأمر الذي يجرنا إلى الاعتبار من
قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ لِأَدَمَ، وَأَدَمُ مِنْ

تُرَابٍ»⁽²⁰⁾. وفي عالم الفروع أسر
وفي الأسر إخوة وأخوات أشقاء،
كما في عالم الأصالة والفرعية
التي تمثل الأسرة الكبرى، وفي
العلاقات الأسرية غالبا ما يسود
التناسق والتآلف والتكامل لتحقيق
الأغراض، وشذوذا يكون التنافر
والإعراض، والشذوذ - برأينا - هو
معلمة طبيعية وظاهرة لا يقاس
عليها، ويمكن أن نلمس هذا الأمر
عند أبي الفتح بن جني في مواطن
أخرى من كتابه الخصائص منها:

- اللام أخت الراء.
- الغين أخت الراء.
- الصاد أخت الخاء.
- الصاد أخت السين.
- الدال أخت التاء.
- القاف أخت الكاف.
- العين أخت الهاء.
- والفاء أخت الباء.
- والياء أخت الواو.
- والهاء أخت الحاء.
- والتاء أخت التاء.

هو معنى القوة و العلو النابعة من صوت اللام.

- مخرج اللام يفيد دلالة القوة والعلو، وقد أفاد ذلك الإمام السكاكي في كتابه المفتاح؛ ومن تمثيل ابن سينا لصوت اللام دلالة واقعية على القوة والعلو.

- صوت اللام يفيد إبراز القوة والعظمة والعلو لغاية التخويف حتى يرجع العاصي إلى الله والمكذب إلى الإيمان.

- قد يتمثل الأمر هذا جليا حين نقابله بصوت مغاير له مثل صوت الصاد والسين؛ قال ابن جني: «فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى العيين وأضعفهما لأضعفهما.. فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى والسين لضعفها للمعنى الأضعف»⁽²¹⁾.

ويوضح ابن جني هذه المسألة أكثر في موضع آخر بقوله: «ومن ذلك قولهم صعد وسعد لما فيه أثر مشاهد يرى وهو الصعود

ومصطلح الأخت هو مبني مسبقا على فلسفة الأصالة والفرعية في أصوات العربية، ويعني به برأينا تأكيد أسرية أصوات العربية، وأن بعض الأصوات بحكم قربها من بعضها في المخرج كانت كأنها أخوات.

هذا التحليل يجرنا إلى ترديد عبارة، أن اللسان ما هو إلا عالم منطوق لعالم مشهود.

وبعد هذا العرض التعريفي في صوتي اللام والراء نخلص إلى الآتي:

- إن الأفعال المبدوءة بصوت اللام تجنح إلى دلالة كلية مشتركة أراها نابعة من دلالة صوت اللام وهي القوة والعظمة والعلو؛ ومثال ذلك الأفعال التالية:

لعب، لكم، لطم، لام، لزم، لقن، لجم، لحم، لغم، لسن، لعن، لقم، لصق، لبق، لبس... الخيط الدلالي الرقيق الذي يربط هذه الأفعال

أخت التاء والبدال أقوى من التاء،
وقد فصل العلامة ابن جني هذه
الثنائية في كتابه (الخصائص) في باب
«تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني
وإمساس الألفاظ لإمساس المعاني».

ما يدل على أن الأصوات لها
معان دالة عليها هو تسميتهم الأشياء
بأصواتها:

قال ابن جني: «كالخازباز
لصوته والبط لصوته والخاقباق
لصوت الفرج عند الجماع والواق
للقرد لصوته وغاق للغراب لصوته،
وقوله تداعين باسم الشيب لصوت
مشافرها...، فهذا لرزمة السحاب
وحنين الرعد، وكالبحر يدعو هيقما
هيقما وذلك لصوته، ونحو منه
قوله: حا حيث عا عيت وها هيت
إذا قلت حاء، عاء، هاء، وقولهم
بسملت وهيللت وحوقلت كل ذلك
وأشباهه إنما يرجع إلى اشتقاقه إلى
الأصوات والأمر أوسع»⁽²³⁾.

أما صوت الراء المنافس لصوت
اللام في الخطاب فيرى ابن جني

في الجبل والحائط ونحو ذلك..
وجعلوا السين لضعفها لما لا يظهر
ولا يشاهد حسا. إلا أنه مع ذلك
فيه صعود الجد لا صعود الجسم،
ألا تراهم يقولون هو سعيد الجد
وهو عالي الجد، وقد ارتفع أمره
وعلا قدره، فجعلوا الصاد لقوتها
مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة
المتجشمة، وجعلوا السين لضعفها
فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين،
والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة
المعنوية»⁽²²⁾.

ومن هذا يظهر لي أن أصوات
العربية هي قائمة على جملة من
القواعد العامة قد تقترب من
القواعد العامة القائم عليها عالمنا
الخارجي؛ ومنها:

قاعدة الصوت الأقوى للمعنى
الأقوى، والصوت الأضعف للمعنى
الأضعف، ويمكن تسمية هذه القاعدة
بثنائية القوة والضعف في انتظام
أصوات العربية، فالصاد أخت السين
والصاد أقوى من السين، والبدال

1 . رَكَمَ: التي تفيد تكرير الكم، منها قوله تعالى ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾⁽²⁵⁾. أي مجتمع ومعنى ذلك هو تكرار الكم إلى حد الركام.

2 . لَكَمَ: قوة الساعد الضارب والمخيف، وفي هذا معنى القوة والعظمة والعلو المرعب.

وفي الاستنتاج النهائي نصل إلى القول: إن أصوات العربية هي على معاني منساقة وفق أحداثها. وطبيعة هذه الدلالات منتظمة على قواعد عامة تشبه انتظام سير الحياة على قواعدها العامة المحكمة من ذلك ما يلي:

- قاعدة الأصل والفرع.

- قاعدة القوة والضعف.

- قاعدة الأسرية والعائلية.

وأن البحث في كامل دلالة أصوات العربية لم يكتمل بعد وهو باب لطيف لكنه وعر المسلك وعزيز المأخذ، ولا يوفق إليه إلا ذو حظ في النظر عظيم.

قال ابن جني: «فإن أنت رأيت شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما

فيه أنه حرف مكرر وكثروها مع ذلك في نفسها، وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعداً عنها ونازلاً إليها، وتكرر ذلك على ما فيه من التعتة والقلق، فكانت الراء لما فيها من التكرير، ولأنها أيضاً قد كررت في نفسها في جر وجررت أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها. هذا هو محجه هذا ومذهبه⁽²⁴⁾.

- وما يؤخذ أيضاً أن الأفعال المبدوءة بصوت الراء أنها تنجح إلى دلالة كلية مشتركة أراها نابعة من دلالة صوت الراء وهي التكرير، ومثال ذلك الأفعال التالية: رحل ركب، ربط، رتب، ردف ردد، رجم، رنم، رصف، رحم، ركز، ركذ، رقد، إلى آخره.. التي يجمع بينها معنى دقيق منبعه صوت الراء وهو التكرير. وقد تتجلى صورة الدلالة المشار إليها في مقابلة الفعلين التاليين:

- كونها تفيد التكرير لأحداث العظمة والقوة المستعلية التي بها يوصل إلى التخويف الرادع والمعتبر، الذي هو محور مقصد خطاب سورة الرعد، وعليه فالانسجامية بينها وبين اللام حاصلة في تأكيد الدلالة، ولو خير صوت آخر غير الراء، كأن يكون صوت الزاي لأذهب المعنى ولبان في مكانه الخلل والاضطراب، وهذا غير لائق بجلال خطاب الله تعالى.

الخاتمة:

- لا تحليل للخطاب إلا بمنهج علمي واضح المبادئ والأسس.

- من الأدبيات الأساسية في المنهج الوصفي الوظيفي رؤيته المنصفة للتراث والحداثة، إذ ليس كل ما في التراث صحيحاً وليس كل ما في التراث خطأ وليس كل ما أنجزته الحداثة صحيحاً، وليس كل ما أنجزته الحداثة خطأ والمطلوب أخذ صحيحيهما وترك خطيئهما.

رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولاً وأوائل قد تخفى عنا وتقتصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه، أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر»⁽²⁶⁾.

ومن ذلك أن صوت اللام تحمل دلالة العظمة والقوة المستعلية لمقصد التخويف حركية في النطق تتبع المعنى في الصوت، قال ابن جني: ومن ذلك تركيب قطر وقدر وقتر، فالتاء خافية متسفلة والطاء سامية متصعدة، فاستعملتا لتعاديهما في الظرفين كقولهم:

قتر الشيء وقطره، والبدال بينهما ليس لها صعود الطاء ولا نزول التاء فكانت لذلك واسطة بينهما فعبر بها عن معظم الأمر.

- وأن صوت الراء تحمل دلالة التكرير، وأن انسجامها مع اللام محكم تمثله الأمور التالية: كونها أختها.

الهوامش

- (1) مفتاح العلوم، الإمام السكاكي. ص 70 دار الكتب العلمية.
- (2) الإيضاح في علوم البلاغة. الإمام القزويني. ص 9 دار الجيل بيروت.
- (3) أسرار اللسان العربي. جعفر دك الباب. ص 817.818.819 بتصرف الأهالي للطباعة.
- (4) سورة الرعد/8-15.
- (5) أسباب حدوث الحروف. ابن سينا، ص 27. مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.
- (6) العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي، ص 65، ج 1.
- (7) الكتاب، سيبويه، ص 405، ج 2.
- (8) سر صناعة الإعراب. ابن جني، ص 321، ج 2.
- (9) المدخل إلى علم الحديث، رمضان عبد التواب، ص 74.
- (10) المفتاح، السكاكي، ص 5.
- (11) كتاب الحروف، الخليل، ص 37. مؤسسة الرسالة.
- (12) سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1.
- (13) أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص 27.
- (14) مفتاح العلوم، السكاكي.
- (15) المدخل إلى علم اللغة الحديث، رمضان عبد التواب، ص 48-49. مكتبة الخانجي القاهرة.
- (16) سر صناعة الإعراب، ابن جني، ص 191، ج 1.
- (17) سورة الرعد/13.
- (18) حديث صحيح، رواه البخاري [في الأدب المفرد، ح: 723، (ص: 252)]. وذكره الإمام النووي في الأذكار.
- (19) الخصائص ابن جني ج 2 ص 149.
- (20) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
- (21) الخصائص. ابن جني، ج 2، ص 160.
- (22) الخصائص. ابن جني، ج 2، ص 160.
- (23) الخصائص. ابن جني، ج 2، ص 165.
- (24) الخصائص. ابن جني، ج 2، ص 164.
- (25) سورة الطور/44.
- (26) الخصائص. ابن جني، ج 2، ص 164.